لمحة عن حياة الرفيق باز علي

هذا الشهيد البطل، الذي سطر بدمائه أروع آيات الشهادة والسير على درب الرفاق الشهداء أمثال مظلوم دوغان وحقي قرار وعكيد؛ هو من مواليد مدنية الرقة السورية الواقعة على ضفاف نهر الفرات، حيث كان يعمل والده بعيداً عن قريته بسبب هجرة أغلبية أبناء القرى الكردية إلى المدن المختلفة في أنحاء سوريا بحثاً عن القوت لأولادهم وأسرهم، وهرباً من الفقر المدقع الذي يلاحقهم كظلهم.

في السنوات الثلاثة الأولى عاش في هذه المدنية في كنف والديه.

تقول عنه والدته وهي تذرف الدموع كأي أمٍ تفقد فلذة كبدها:

"كان الرفيق بلال حركياً، يحب اللعبَ واللهو مع رفاقه من أبناء جيله. كانت روحه مرحة، يمازج الصغار والكبار كثيراً. إنه يدب نشاطاً، يحب العمل كثيراً. فمنذ نعومة أظافره كان دقيقا وجديا في العمل. كان يظهر أكبر من عمره، فهو يتقن أي عمل يكلف به. لا يكل ولا يمل. نشيطُ في مدرسته، مجتهدٍ لا يهمل واجباته المدرسية، وكان كثير السؤال، حيث كان يحب أن يستفهم عن كل شيءٍ من حوله. إنه كائن اجتماعي من الطراز الأول، يحب مدَّ يد المساعدة للآخرين، وخاصة من أبناء طبقته الفقيرة".

تابعت والدته بالقولِ: "أتذكر عندما كان في الصف الرابع الابتدائي سافر معنا إلى القرية (قرية حاج خليل) التابعة لمنطقة عفرين، فقرر الذهاب مع صديق له لزيارة (قرية حسي)، وهي بعيدة عن حاج خليل. وهناك خيم المساء عليهم فقرر العودة إلى البيت رغم اعتراض صديقه. فقال بلال له: أنا قررت العودة إلى البيت. ولم يدخل قلبه الخوف والرعب عبر الطرق الجبلية الوعرة، فهو يملك قلباً جريئاً وقوياً رغم صغره. عاد حينها إلى البيت قاطعاً مسافة 5 كم، دون أن يرف له جفن. وفي ساعةٍ متأخرة من الليل سمعنا طرق الباب، فإذ ببلال على الباب. ضممته إلى صدري، وسألته:

- **كيف عدت؟**
- **فردّ: لوحدي يا أمي.**
- **ألم تخف!**
- **لا يا أماه."**

أردفت الأم الجريحة ذكرياتها وهي تقول: "وفي إحدى الأيام كان الوقت عصرا حينما قال لي:

- يا أمي أنت تحبين الثلج مع الدبس كثيراً، فهل تحبينني إن أتيت لك بالثلج؟. فالثلوج متراكمة ما بين جبلين على مرتفع بين قرية (موساكه) وقرية (درويش) القابعة فوق جبل مرتفع. لعينيكِ يا أماه ها أنا ذاهب

قلت:

- **لا يا بني، فالمسافة بعيدة، وقربت الشمس من المغيب.**
- **من أجل حبي لك يا أماه لن أخاف من أي شيء.**

ورغم وعورة الجبال أتى لي بالثلج، دون أن يحسب حسبة لهيبة الليل. هكذا كانت ثقته عالية بنفسه. هكذا كان في طفولته، محباً لأمه وأبيه وللناس، يعشق الحرية، ويكره الكذب ويحقد على الكاذبين. يحترم من هو أكبر منه سناً، ولا يعتدي على من هو أصغر سناً.

تعرض الرفيق بلال في صغره لحادثة صغيرة حين كان منهمكا باللعب واللهو في الحديقة. فبينما كان يجري مع رفاقه وراء الكرة، عرقله أحد رفاقه، فكسرت ساقه. وبعد شفائه تماماً عاد كما كان، دون أن يأبه لما جرى له. كان كثير الحركة، حاد الذكاء. كان مستواه الدراسي جيداً، وخاصة في مادة الرياضيات، وكان ضليعا في اللغة العربية. دخل المدرسة في مدنية حلب، حيث أتم مرحلة الدراسة الابتدائية في مدرسة (فايز محمد) الابتدائية.

وفي المرحلة الإعدادية، التي كانت تشكل النقلة النوعية في مسيرة حياته، وبالتحديد في إعدادية (عبد اللطيف نعناع) التي كانت تعج بالطلبة الكرد، حيث الكثافة السكانية في حي الأشرفية فرضت هذا الواقع؛ كانت علاقاته مع رفاقه في الدراسة مع من يكبره سناً، حيث أن أوقات الفرصة كانت تسنح له بفتح باب النقاشات الشبابية.

في هذه السن المبكرة تعرف على أرقى قائدٍ أنجبته الأمة الكردية في العقود الأخيرة من هذا القرن، ألا وهو القائد الوطني عبد الله أوج آلان، الذي حطم أسطورة الخوف والجبن التي فرضها أعداء الكرد على هذه الأمة في شخصية أفرادها.

كان حينها في الرابعة عشر من عمره. كان ذكياً جداً، يملك القدرة على المناورة في واقع المجتمع الرديء. كانت حركاته مشحونة بالحنكة السياسية. ولكي لا يلفت انتباه أحدٍ، كان يكثر من المزاح والهرج. وأثناء العطلة الانتصافية كان يلتحق بالعمل تجنباً لكلام الناس والأهل، وهروبا من غضبهم وسخطهم عليه.

ونتيجة تعاظم تأثير فكر الحزب والقائد على شخصيته وهي في مراحل تكوينها الأولى، قرر ترك الدراسة في الصف الثالث الإعدادي، فالتحق بمدرسة التدريب المهني في حي ميسلون بحلب قسم مكانيك السيارات، حيث أحب هذا التخصص بشكل لافت للنظر، لذلك اجتاز امتحانها بتقدير ممتاز.

إن عمله هذا كان تظاهراً وإيهاماً منه لأهله وأقاربه بأنه لكسب مربح قد يفيده في كحل الأيام وسوادها. ولكن الحقيقة كانت غير ذلك، والدافع الحقيقي كان بغية استغلال الوقت والزمن لتطوير شخصيته".

تقول والدته: "كان بلال دائما يسألني عن تاريخ العائلة وجذورها، ومن أتوا. وكان كثير السؤال عن ظروف المعيشة أيام أجداده وأجداد أمه وأبيه، وعن طريقة أكلهم وشربهم وطراز حفلات الزفاف أيامَهم. فكنت أجيب على كل أسئلته الشفافةِ على قدر معرفتي بها، وكذلك كان يفعل والده".

بعد انقطاعه عن البيت لفترة طويلة زارنا أحد الرفاق، فقال لي ذاك الرفيق:

- يا أماه، لي الشرف بالتعرف على أمثالك. فالرفيق "باز" دائماً كان يقول لنا: (إن أمي هي التي تستحق كل أوسمة الشرف، فهي التي شجعتني وخلقت شخصية الثورية. وإنها مصدرُ قوتي حتى الآن. لذلك، وعندما ودعت أهلي، انهمرت الدموع من عيني والدي ساعة الوداع. لكن أمي بقيت صامدة، أبية النفس، وهي تقدمني للوطن الغالي. إنها أمٍ عظيمة!)".

توقفت الأم برهة من الزمن تائهة في غياهب صمت الزمان القاتل، ثم راحت تتابع: "لقد تذكرت عندما كان في الخامسة من عمره، وفي إحدى الأيام طلب مني فنجان قهوة، فلم أعره اهتماماً، فبكى كثيراً من أجل ذاك الفنجان. سألتني جارتنا:

- **لِمَ يبكي بلال يا أختاه؟**
- **تصويري إنه في هذا السن ويطلب مني فنجان قهوة. فما رأيك؟**
- **إن نفسه العزيزة جعلته يبكي فلا تكسري بخاطره. إن ابنك هذا سيكون ذا شأن كبير في المستقبل.**

هذا ما كانت تقوله لي الجارة باستمرار.

إن عشرته التي دامت معنا سبعة عشر عاماً كانت كالخيال. لم يزعج أحداً، بل كان كالشعلة المضيئة في الفقراء من أبناء طبقتنا. فهو كان يحب زيارة المرضى ومساعدة المحتاجين. كان يردد دائما: (أتعرفين يا أماه، سنحرر كردستان يوماً ما بإذن الله، لكي يراها أطفالنا ويكبروا فيها أحراراً، لا خوف في قلوبهم من جوع أو فقر أو اضطهاد. فنحن مع قائدنا APO لا نخاف من أي شيء أبداً. قد نلتقي يوماً ما على تلك الأرض الطاهرة، إذ سنزيل تلك الحدود اللعينة التي رسمها البريطانيون والفرنسيون في اتفاقية سايكس بيكو بين أجزاء كردستان الأربع).

وعندما سألته زوجة أخيه عن ممانعته فكرة الزواج من امرأة، رد عليها قائلاً: (أتزوج! هذا غير وارد في حياتي. فكل أملي وحلمي الآن هو تحرير كردستان، وبعدها سأفكر فيما تقولين).

هكذا هو قول كل من آمن بفكرة التحرر، وعشق الحرية كالصقور على الجبال الشاهقة. هكذا خلق القائد آبو العظماء".

تقول والدته مرة أخرى بعد أن رشفت من كوب الشاي الذي أمامها: "كان الناس يطرقون الكلام على مسامعي: (سيعود ابنك بعدما ألقي القبض على قائده، وسيفرُّ هو وأصدقاؤه من الثورة). لكن ردي على هؤلاء أن قلت لهم: إنني واثقةٌ من أن أسر القائد سيزيدهم تمسكاً بالقضية وحباً للوطن والقائد، وإني واثقة من إنني أرضعت أبطالاً لا جبناء. وحتى آخر يومٍ من حياتي أنا واثقة كل الثقة بأنه لن يعود أبداً. فإما الشهادة أو النصر العظيم. هذه هي قناعتي لأنه هو القائل: يا أماه، لي رجاء عندكِ بأن لا تنوحي أو تذرفي دمعةً عليّ أبداً، فإن نلت مرتبة الشهادة سيزيدك ذلك شرفاً وكرامة".

أما عندما سألنا شقيقه عنه فتنهد قائلاً: "بتاريخ 20/ آذار/ 1992 تم اعتقاله في منزلنا برفقة عدد من الرفاق عندما كنا نحتفل بليلة عيد النوروز. فنتيجة إخبارية من العملاء تمت حادثة اعتقاله مع الرفاق ووالدي. ونتيجة لتدخل عدد من الشخصيات المقربة من والدي تم الإفراج عن والدي فوراً. وعندما ساومت السلطة أخي بالتعاون معهم مقابل الإفراج عنه رفض ذلك بشكل قطعي قائلاً لضابط التحقيق: (لن أخرج لوحدي إلا ورفاقي معي. ومن الأفضل أن تلحقني برفاقي في الزنزانة. فمن العيب جداً أن أخرج لوحدي بينما يبقى رفاقي رهن الاعتقال والتعذيب. هذه ليست من أخلاقيات الثوريين).

فبقي في السجن مع أحد عشر رفيقاً لمدة شهرين، حيث تم الإفراج عنهم جميعاً. وبعد خروجه من السجن بشهرين ونصف كان التحاقه بصفوف الثورة في كردستان.

وفي شهر حزيران من عام 1997، ونتيجة القصف الوحشي من قبل الطائرات التركية على منطقة نهر هيزل، أصيب بجروح بليغة عانى منها مدة ثلاثة أشهر إلى أن استشهد هناك، وتم دفنه في تراب الوطن الغالي كردستان الأبدية.

صادر في ملف الشهداء العدد الثاني" شيلان" أيار 2006